عفيفة صعب، تجارب وأبعاد

> أتغضبك القيود؟ أيمضك عضّ الأغلال؟ أيستثير نقمتك صليل السلاسل؟ أيغريك الخيال البعيد الماثل لك حرية هي في عرفك، إطلاق يخوّلك فعل ما تشاء، حين تشاء، كما تشاء؟ تقول: أجل، وإلا فما معنى حرية ينادي بها صوت الجيل قاطبة؟ وما معنى الارتقاء الذي يدّعيه العصر، ويدوّي نفيره في أقطار المعمور؟ أجل! حركة الفكر دليل حياته وسبيل ارتفاعه. واحتجاجه على الأنظمة والقوانين نافع في كلتا حالتيه، النجاح والفشل[١].

هذه هي عفيفة صعب[٢] الغاضبة على القيود، الناقمة على التقاليد، المتحركة سعيًا وراء المعرفة والارتقاء الإنساني. لا تخاف الفشل ولا يبهرها النجاح. فالحياة بمنظارها "معاملة صعبة، تضحية، عذاب، فرح وألم، بل هي خضّم من الألم، وعلى الإنسان ألا ينقم على الألم فهو مغذ للذكاء، ومهذّب للشعور، ومنبّه للإدراك، ومستنزّل للوحي، ومفجّر لينابيع النهي، وهو يعطي القلم ويزيد العقل إبداعًا وإنماء".[٣] قلة هن من يعرف هذه الحقيقة فإذا سألت من هي "مس عفيفة" – وهو الاسم المتداول على السنة تلميذاتها – كانت الإجابة أنها المربية المعطاء التي كرّست حياتها لتربية جيل من البنات اللواتي لولا تضحياتها لكنّ جاهلات قابعات في زوايا بيوتهم. ولكن تبقى تجارب عفيفة صعب وروحها التي تصبو إلى الأفضل وكفاحها مجهولا طوي مع إغلاق مجلة الخدر ما يبرر العودة إلى التاريخ وإلقاء الضوء على سيرة إحدى المساهمات في حركة تحرر المرأة في عشرينات القرن الماضي.

الحركات النسائية الشرقية اليوم تواجه تساؤلات، غربية المصدر في غالبيتها، عن حالة التناقض اللاواعي التي يعشنها، فهن مع اقتباس غير محدود من الغرب، وتمسك غير محدود أيضا بتقاليد شرقية اعتبرتها نساء العشرينات بمثابة "أغلال" ناضلت وضحت واتهمت بالتهور والفجور كي تتخلص منها. عفيفة صعب واحدة من هؤلاء النسوة وهي أول أديبة درزية اتخذت الصحافة مهنة خاصة، فأعطت من صفحات مجلتها النسائية "الخدر" متسعًا رحباً لأدبيات الخدور لبث أفكارهن والخوض في ميدان الكتابة والدعوة إلى النهضة والتخلص من قيود التقاليد "وطلب المعالي، عالمات أن الحياة الحقيقة السامية لا ترقى درجاتها إلا على سلم العمل الصحيح"[٤].

---

[١] عفيفة صعب، "القيود"، **الخدر**، ٧(كانون الأول، ١٩٢٥)١٣٠.

[٢] ولدت عفيفة فندي صعب (١٩٠٠-١٩٨٩) في بلدة الشويفات من جبل لبنان. درست في مدرسة الانجليز، وتخرجت من مدرسة بروكر التي أصبحت فيما بعد مدرسة الشويفات الوطنية أو مدرسة القسيس طانيوس سعد. مارست التعليم لسنوات عدة في لبنان وفي العراق ثم انقطعت لادارة مدرسة الصراط التي اسستها سنة ١٩٢٥ بالاشتراك مع شقيقتيها الاديبتين فطينة وزياد. أنظر: محمد خليل الباشا، **معجم اعلام الدروز**، جزءان، المختارة، (لبنان: الدار التقدمية، ١٩٩٠)، ٢/٨٥؛ اديل حمدان تقي الدين، **المرأة في مجتمع الموحدين الدروز بين الامس واليوم**، (بيروت: الفرات للنشر، ٢٠٠٤)، ١٤٦-١٤٨.

[٣] من مقابلة اجرتها معها ناديا نويهض. انظر: ناديا الجردي نويهض، **نساء من بلادي**، مقدمة من سليم الحص، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦)، ٤٤٤.

[٤] عفيفة صعب، "الافتتاحية"، **الخدر**، ٢(تموز، ١٩٢٠)٣.

نشأت عفيفة صعب في عائلة درزية محافظة كان لوالدها الفضل الأكبر في تقدمها العلمي والفكري، إذ لم يميّز بين أولاده فأعطى لبناته الفرص ذاتها في التعليم وكسب المعرفة. غير أن المجتمع الدرزي في أوائل القرن الماضي كان قد ابتعد عن التراث وأهمل تعليم الفتاة، وفرض عليها قيودًا كان لا بد من كسرها. ويبدو أن الفرق بين المتعلمات وسواهن من بنات المجتمع الدرزي كان الحافز لعفيفة صعب بأن تنشأ مجلة الخدر؛ وحين وجدت أنها لا تفي بالمطلوب جاءت تطالب بمدرسة أناثية لترفع من مستوى بنات جيلها.

أصدرت عفيفة صعب مجلة الخدر سنة ١٩١٩[١] وهي في التاسعة عشر؛ وسعت أن تكون "خدرًا جامعًا"[٢] لكل ما تحتاج إليه النساء عمومًا، والدرزيات خصوصًا، لتوسيع أفاقهن والتأكيد على المساواة وإعلاء مقامهن في معترك المدنية المتغيرة. استمرت مجلة الخدر في الصدور طوال ثماني سنوات متواصلة في خدمة المرأة والأدب والعلم والمجتمع[٣]. وبالإضافة إلى ذلك راسلت عفيفة صعب الكثير من الصحف العربية والأجنبية، وكتبت في الكثير منها: كالمعارف والتهذيب والمقتطف وصوت المرأة[٤]. وتُعد من الرائدات اللواتي عملن على تحقيق النهضة النسائية في لبنان فكانت عضواُ بارزاً في عدد من الجمعيات والهيئات النسائية[٥]. ولم يقتصر اهتمام عفيفة صعب على الصحافة بل تعداه إلى التربية والتعليم، ففي سنة ١٩٢٥ أسست مدرسة الصراط في عالية من جبل لبنان وقضت معظم حياتها في تربية النشء الصالح جيلاً بعد جيل.

ومن السهل أن يلمس المراقب الضغط الذي كانت تواجه عفيفة صعب من خلال ما أوردته مجلة الخدر على لسان بعض أعيان الطائفة اعتراضًا على ما كانت تدعو إليه من العلم والتقدم[٦]، مهاجمًا فيها فيها الحركة النسائية ومستخفًا بانجازات سيداتها، خصوصًا ما يتعلق منها في موضوع المساواة بين

---

[١] انظر نصّ الاجازة الصادرة عن الحاكم الاداري العام في ٢ حزيران سنة ١٩١٩ بتأسيس مجلة الخدر عند ناديا نويهض. ورد في جدول من اعداد اميلي فارس ابراهيم ان مجلة مينرفا لصاحبتها ماري يني بدأت بالصدور سنة ١٩١٧. وعند مراجعة ارشيف مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت تبين ان اول عدد من هذه المجلة صدر سنة ١٩٢٣. فضلا عن ذلك ذكرت سلمى صائغ في العدد الأول من مجلة مينرفا ان "اخوات" مينرفا حسب الاقدمية: العروس، الفجر، الخدر، المرأة الجديدة، والحياة الجديدة. كذلك اغفلت اميلي فارس ابراهيم ذكر مجلة "العروس" التي انشأتها ماري عبدة عجمي سنة ١٩١٠. وقد اطلعت على العدد الأول ضمن ارشيف مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت. أنظر: ناديا الجردي نويهض، **نساء من بلادي**، ٤٤٢؛ سلمى صايغ، **مينرفا**، ١(نيسان، ١٩٢٣)٥؛ اميلي فارس ابراهيم، **الحركة النسائية اللبنانية**. المجلس النسائي اللبناني، (بيروت: دار الثقافة، لا تاريخ)، ١٢٨-١٢٩.

[٢] سمية سلمان، "النهضة النسائية الدرزية"، **الخدر**، (كانون الثاني، ١٩١٩)، ٢٥٤.

[٣] صدر العدد الاخير من مجلة الخدر في حزيران سنة ١٩٢٦. ولم تذكر عفيفة صعب في افتتاحية ذلك العدد أي سبب يحملنا على الاعتقاد أنه العدد الاخير أو ان المجلة كانت تتعرض لمشاكل قد تؤدي إلى إغلاقها. والارجح ان التنافس بين المجلات النسائية، والعبء المادي وراء هذا القرار. للمزيد من المعلومات حول ظاهرة اقفال المجلات النسائية في مطلع القرن العشرين أنظر: نهوند القادري، "صحافة اللبنانيات وجمعياتهن في العشرينات؛ وجهان لعملة واحدة" في **النساء العربيات في العشرينات حضورا وهوية**، ٧١-٩٨، (بيروت: تجمع الباحثات اللبنانيات، ٢٠٠١).

[٤] اديل حمدان تقي الدين، **المرأة في مجتمع الموحدين الدروز**، ١٤٦.

[٥] محمد خليل الباشا، **معجم اعلام الدروز**، ٨٥/٢. تحدثت عفيفة صعب عن خبرتها في العمل الاجتماعي في مقال بعنوان: "باقة زهور من روض جامعة السيدات"، **الخدر**، ٢(آذار، ١٩٢١)٣٤٤-٣٤٦.

[٦] عفيفة صعب، "حول خطاب موجه للسيدات"، الخدر، (تشرين الأول، ١٩١٩)، ٢٦٥-٢٧٤.

الجنسين. فنراه يلفت الأنظار إلى "الأمور المضرة" التي تنجم عن طلب المساواة. وينكر على النساء القدرة على التفكير أو الإبداع، ويعتبر أن القلة منهن اللواتي قمن بأي عمل خلاّق كن محاطات بكبار الرجال يأخذن "أفكارهم ويتبعن آراءهم"[١]. ويجب ألا يغيب عن بالنا أن صاحب المقال يمثل الغالبية من رجال الطائفة في عصره[٢]. فكان على عفيفة صعب أن تواجه هكذا عقلية برفض المقولة التي تسلح بها الكاتب بأن الحق للقوة. وتصر على العكس تمامًا فالقوة يجب أن تكون للحق. ثم تقارع الحجة بالحجة وتبين الخطاء وتدافع عن حرية التعليم وتطلب الفرص المتوازية في العمل حتى في المجال السياسي. وتركز على التهميش الذي كانت تعاني منه المرأة الدرزية بوجه عام "[٣].

أما عن دور المرأة خارج البيت، وهو ما كان يعتبر العامل الأساس في تحطيم الأسرة[٤]، ومعزوفة واجب المرأة البيت والأولاد، فقد رفضته عفيفة صعب. ولعلها في قمة ثورتها رفضت أيضا فرص الزواج التي كانت تقدم لها، وهي بنت العائلة العريقة، فكرّست حياتها لرفع مستوى بنات جيلها وإنارة طريقهن، وبهذا برهنت سخف تلك النظرية ولو على حسابها الخاص فحرمت الحياة الاجتماعية التي كانت تتمتع بها المتزوجات في عصرها.

أهداف مجلة الخدر

ولم تجد عفيفة صعب سوى طريق الصحافة التي باتت ميدانا للمعاني الأساسية التي شغلتها، ولغة القضايا والأسئلة الكبرى التي طرحتها. فإن من يطلع على أعداد المجلة يندهش لتنوّع المواضيع المطروحة ومستوى الأدباء والشعراء والمؤرخين من الجنسين، والسياسيين ورجال الفكر الذين خصّوا صفحاتها بمقالاتهم وتعليقاتهم وأبحاثهم[٥]. ففي أول إطلالة لها عبر مجلة الخدر تطالعنا الكاتبة بنظرة تأملية تصف فيها حال التخلف الفكري الذي كانت تعيش فيه. وتظهر لنا بوضوح ما قاسته من المجتمع الذي لم يتفهم نظرتها المتطورة.[٦] فهي تؤمن قبل كل شيء بحتمية التقدم، وتذكر أن الواجب يقضي قبل تخطئة الرأي الحديث لمجرد كونه حديثًا، بضرورة الفحص والتدقيق وتناول المواضيع من كل جوانبها حتى تظهر الحقيقة التي هي وليدة البحث[٧]. وتعترف عفيفة صعب بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقها إذ إن مجلة الخدر تدخل بيوتا دون سواها لهذا فعليها واجب الاعتناء وحسن الاختيار في كل ما تودعه صفحاتها "للخدمة الخالصة".

---

[١] سليم المقدم (المحامي)، "خطاب موجه للسيدات"، **الخدر**، ١(تشرين الأول، ١٩١٩)، ١٨٣.

[٢] جرجي باز، "نهضة الدرزيات"، **الخدر**، ١(تموز، ١٩١٩)، ٥١-٥٤.

[٣] عفيفة صعب، "حول خطاب موجه للسيدات"، ٢٧٤.

[٤] سليم المقدم، "خطاب موجه للسيدات"، ١٨٤.

[٥] اديل حمدان تقي الدين، **المرأة في مجتمع الموحدين الدروز**، ١٤٧.

[٦] عفيفة صعب، "المقدمة"، **الخدر**، ١(تموز، ١٩١٩)، ٣٦.

[٧] عفيفة صعب، "الناس اعداء ما جهلوا"، **الخدر**، ١(تموز، ١٩١٩)، ٣٧.

وفي طرحها لأهداف مجلة الخدر تطمح عفيفة صعب إلى مجلة نسائية علمية أدبية صحية. فهي نسائية لان المرأة الشرقية في أوائل القرن العشرين كانت في معترك نهضة جديدة ذات طرق متشعبة ونماذج عديدة. وهي تصبو إلى حال نسائية عالية المقياس، الحال المؤدية بلا ريب إلى ارتقاء حال المجموع[١]. والخدر مجلة علمية لان الإلمام بمبادئ معظم فروع العلم من الضروريات. وهي مجلة أدبية لأن الأدب هو صورة حيّة لتطور الأمم الفكري، ومرآة العقول المنكّبة على المجتمع الإنساني تدرس أخلاقه وميوله وطبائعه وتتحرى الدواء، وتبحث عن أسباب المسببات وتضع المبادئ الصالحة لان يشاد عليها صرح المجتمع الأدبي. وتبدو عفيفة صعب مدركة قوة الصحافة في تغير المجتمع وان أصحاب القلم يثورون على كل شيء يقيد الحرية وعلى كل الأنظمة القديمة.

اختارت عفيفة صعب اسم "الخدر" لمجلتها وهي تسعى لها بدور"الموصّل بين خدور ربات الخدور" ورسالة لهن للاطلاع على زبدة ما جمعته من "أقوال أفاضل الكتبة وفضليات الكاتبات في العلم والتربية وتدبير المنزل."[٢] ولها بالمرأة اهتمام خاص كما أن لها بها معرفة عميقة لأنها ترى نفسها مرآة تعكس لها كل حسناتها وسيئاتها، آمالها، ورغائبها، غرائزها وميولها، عواطفها وقواها. وتتعهد لها "بالشعور الذي يدرك الآم المرأة الخفية، وبالاشتياق الذي يزيح الستار عن أمانيها الكامنة، وبالنور الذي تتلمسه عيناها المحتجبتان لمرافقة السائرين على هدى في موكب الحياة النشيطة، أتجرد، أنا الفتاة الدرزية، من كل صفة تخرجني عن دائرة كوني فتاة درزية محجبة لولوج عالم الخدور بغوامضه ومشاكله ومسالكه واستخرج ما هنالك من عبر ودروس وأشواك وأزهار".[٣]

المرأة في كتابات عفيفة صعب

وكسائر المساهمات في النهضة النسائية في أوائل القرن العشرين تبحث عفيفة صعب في افتتاحية العدد الأول من مجلة الخدر مسألة السفور والحجاب. وهي أول سيدة درزية تطرقت علنا إلى موضوع الحجاب[٤]. ثم توضح أن أسباب تحجب النساء تعود إلى تسلط الرجل على المرأة وزعمه أنه خلق خلق ليكون سيداً يجير الأمور بمشيئته. فصوّر له هذا الوهم أنها سلعة يحسن التصرف بها كيف شاء، فارتأى تحجبها لأسباب يجيزها هو. ومع التقدم العلمي كان لا بد من نبذ هذه العادات، وقد تحقق أن المرأة هي نصف الوجود الإنساني فلا يجوز أن تبقى خاملة قابعة في البيت. وتسأل الكاتبة عن إمكانية تقدم الكون، ونصفه بهذه الحالة.

---

[١] عفيفة صعب، "الافتتاحية"، **الخدر**، ٤(تموز وآب ١٩٢٢)، ٥.

[٢] عفيفة صعب، "المقدمة"، ٦.

[٣] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية، كلمة تمهيدية"، **الخدر**، ٣(آب، ١٩٢١)، ٤٩.

[٤] خلافًا للاعتقاد السائد أن نظيرة زين الدين هي أول سيدة درزية تناولت مسألة الحجاب بشكل علني فإن عفيفة صعب كتبت المقال المشار اليه سنة ١٩٢١ أي قبل صدور كتاب "السفور والحجاب" بسبع سنوات. وتبقى حقيقة ثابتة وهي أن نظيرة زين الدين كانت الرائدة في دعوتها إلى السفور. للمزيد من المعلومات عن آراء وكتب نظيرة زين الدين أنظر: نازك يارد، "نظيرة زين الدين (١٩٠٨-١٩٧٦) بين التحدي والالتزام"، في **النساء العربيات في العشرينات**، ٢٤٣-٢٦٢.

وتفصّل عفيفة صعب تعاطي المرأة الشرقية والغربية مع مسألة المساواة بين الجنسين. وتعتبر أن المرأة الغربية تقدمت في العلم تقدمًا أهّلها لمعاضدة التمدن بإعدادها الناشئة على قواعد التربية الحسنة، تتبّعتها المرأة المسيحية الشرقية على الأثر. أما الحجاب فلم يكن مفروضًا إلا على المسلمات. فظهر التباين جلياً عليهن. ومع رفضها أن تتهم بصبغة مذهبية تجد نفسها مدفوعة إليها وتتكلم بلسان زميلاتها المحجبات اللواتي لهن من "الآمال ما بلغ منه بنات السفور الشوط البعيد، وأمامهن من المشاكل ما أصبحن هن منه في حل طليق". وهن فئة قليلة جاهدت وصبرت وبلغت، على حد تعبير عفيفة صعب، "حقل الوطن داميات الأكف مهشمات الأقدام[١].

وتصوّر لنا الصراع الداخلي الذي عانته، وهي المرأة المحجبة التي كانت تتوق إلى معرفة أسباب التأخر فلا تدرك[٢]. تود مجاراة المتعلمات فلا تتمكن من إتمام رغباتها. "واليد المخلصة التي ترافقها في المسير قائدة هادية، لم تجدها"[٣]. فسلطة الآباء المتسلّحين بحجة أن الدين يأمر بحجاب المرأة، لا يجيز لها مخالفة دينها. ولا توافق الكاتبة المقولة أن الدين هو السبب، فالتحجج بحججه ما هو إلا وسيلة ضغط يستعملها الرجل، مهما كانت علاقته بالمرأة، لإبقائها تحت سيطرته. وإذا كان الدين يأمر بالحجاب وكان مرور الأيام وتمسك الأمم بتقاليدها قد ضيق نطاق الحجاب على الدرزيات، فإنما ذلك لأمور اجتماعية اعتقاديه تتكفل بها الأيام ولكنها لا تمس قواعد الدين الجوهرية ولا توجب اتهامه بفرض الجهل على تابعية[٤].

وتذعن الكاتبة لقدرها وقدر بنات محيطها المحجبات فتقول: "أما وقد قُدّر أن نمثّل رواية حياتنا داخل خدورنا وقُضي علينا بالحجاب وكان الدين آمراً به فنحن نتبعه محترماتٍ ديننا مقدسات أوامره"[٥]. وتبرر عفيفة صعب هذا الإذعان بقولها أن ما من شيء في الكون: "أولى بالإتباع من الدين الرابطة العظمى بين الخالق والمخلوق".[٦] وتعود تتحسر رافضة قدرها فتقول: " ولكن العيون المبصرة تكره الظلمة وتسعى إلى حيث النور يبث الحياة في كل كائن حي"[٧]. وهي بهذا توجه دعوة إلى بنات جيلها لفتح نوافذ نوافذ خدورهن لاستقبال نور العلم الصحيح والتهذيب الحقيقي. وترفض المقولة بأن الحجاب يقف عائقًا ضد التقدم أو أنه حاجز بين المرأة وبين المعرفة. لأن واضعه ما كان ليرضى بالقضاء المبرم على حياة البنات وتقدمهن الأدبي. وتعود الكاتبة لتعترف أن هناك قلة من الرجال الشرقيين ممن نظروا "بعين بصيرة" إلى انحطاط المرأة الناشئ عن جهلها فبحثوا عن طريقة بها يستأصلون، ما تعتبره "الداء القاتل" أدبيًا، مع المحافظة على الحجاب المأمور به ديناً. فرفع عنها الحجاب تدريجًا، وخوّلها حق اخذ العلم،

---

[١] عفيفة صعب، "عالم المرأة"، **الخدر**، ٤(كانون الثاني، ١٩٢٣)، ٣٥٢.

[٢] المصدر السابق.

[٣] المصدر السابق.

[٤] شفيق القاضي، "هل يغاير الدين الدرزي؟"، **الخدر**، ٢(ايلول، ١٩٢٠)، ١٠٢.

[٥] المصدر السابق.

[٦] المصدر السابق.

[٧] المصدر السابق.

وساهم في أنشأ المدارس لترقيتها وتهذيبها وإعدادها لعصور التمدن الباهرة الذي كان يبشر به فصار بين "ربات الخدور شموعًا تبعث نوراً"[١]. ولكن ما فائدة هذا النور الذي أخذ يتلاشى ما دام لم يُستغل. ولم تستطع عفيفة التخلي عن الحجاب التي لم تكن تؤمن بجدواه أصلا، فبقيت ملازمة له، ولو بشكل رمزي، حرصًا على سمعتها وخوفًا من أن يحرم الآباء بناتهن من الالتحاق بمدرستها. فهي لم تجد سوى الوالد ليحميها من ظلم المجتمع الذكوري.

ومن الواضح أن إفساح مجال الفائدة الأدبية للمرأة، لم يعن عند عفيفة صعب خرق الحجاب، وإنما يعني حل قيدها نوعاً بحيث استطاعت أن تشرف على متشعبات الحياة الأدبية من مختلف أساليب التربية وحسن التداخل مع الأصدقاء والمعارف الغرباء. ومع أنها حاولت تفهم موقف رجال عصرها، نراها في الوقت ذاته تناشد بنات جيلها عدم الاستسلام لحالتهن الحاضرة بما فيها من خمول وفتور، بل تدعوهن إلى النهوض مع "طلوع الصبح الجديد في هذه البلاد، صبح الحرية والمعرفة، بغية الاستفادة من هذا النور الباهر. وليس هذا بالأمر العسير على كل من أرادت وسعت"[٢].

ونستنتج مما تقدم أن عفيفة صعب لم تعطي السيدات المسلمات، والدرزيات منهن، العذر في الاستسلام لقدرهن. وهي وإن لم تدعُ إلى السفور، وقد قبلت وضعها كسيدة محجبة، لا تسمح لهن بأن تتخذن من الحجاب سبباً للتأخر عن سواهن من السيدات المسيحيات والغربيات. فليس بالصعب جعل الحجاب حافزاً للسعي وراء المعرفة فهي قد وجدت في التقدم العلمي في الغرب ما شحذ فيها الغيرة الجنسية، فكرست وقتها حباً بخدمة بنات طائفتها وأسست مجلتها، الخدر.

ونرى عفيفة صعب في حالة ارتباك في مواجهة الدعوة التي انتشرت في دمشق تدعو إلى القضاء على الحجاب في العالم الإسلامي[٣]، وكانت القضية اجتماعية نسائية فكان لا بد لعفيفة صعب من ولوج هذا الطريق، على مشقة ووعرة مسالكه. وخوفًا من توجيه اللوم إليها، وهي الحريصة على المحافظة على مجتمعها، نراها تستفتي عددًا من أدباء المسلمين ومن خيرة "أهل الرصانة والتفكير تفاديًا من ورود الآراء عن مصدر الطفرة والتحمس"[٤]، وتدعو إلى حوار بين القراء والكتاب والباحثين الاجتماعين حول أمر بهذه الأهمية الذي لا يمكن أن يُعالج بما تسميه بطيش الشباب. وتعتبر أن البحث المنزّه لا يمكن أن ينتهي بهدم الصالح. وإذ أصبح الفكر "في هذا الوقت طليقًا إلى درجة لا يحسب معها شيئًا مقدّسًا يعلو على درسه والبحث فيه. فالطارئ والناشئ والمنزّل، والموضوع، يُقبل عليه بجرأة وتجرّد ويحسبه خاضعًا لنتائج درسه المعقولة"[٥].

---

[١] المصدر السابق، ٥.

[٢] عفيفة صعب، "المقدمة"، ٦.

[٣] أنظر الجدول الذي اعدته نهوند القادري والذي يثبت ادعاء عفيفة صعب. نهوند القادري، "صحافة اللبنانيات وجمعياتهن في العشرينات"، ٩٣-٩٥؛ اميلي فارس ابراهيم، **الحركة النسائية اللبنانية**، ١٢٨.

[٤] عفيفة صعب، "الفرد والمجموع"، **الخدر**، ٥(نيسان، ١٩٢٤)، ٤٩٠.

[٥] عفيفة صعب، "حركة في الإسلام"، **الخدر**، ٦(كانون الثاني، ١٩٢٥)، ٣٠٦-٣٠٧.

عفيفة صعب إذن تأخذ الدرب الوسطي بين دعاة السفور ومن يشدد على إبقاء الحجاب. ولا يغيب عن بالنا أن الدعوة إلى السفور استقبلت بالرفض في البيئة المحافظة التي عاشت فيها حتى بعد مضي عدة سنوات على هذا المقال عندما دعت إليه علنًا زميلتها نظيرة زين الدين. وبالرغم من تحفظها في مسألة السفور فهي لا تترك مناسبة إلا تدعو الفتاة إلى الاعتماد على النفس. أما إذا نشأت على الانقياد والاتكال، فهي لا تستطيع استقلالا عندما تدعو إليه الظروف. وبالإضافة إلى استقلالها المادي، لا بدّ من احترام استقلال الفتاة النفسي فتتمتع بحرية التفكير والإرادة والميول ويزيد اعتبارها لذاتها مما يدفعها إلى المحاسن من الأعمال. وتعلق أخيرًا أن "لكلّ منا كيان مستقل وحرام قتله بالقوة لأنه جوهر الحياة"[١]. لم تتخلى عفيفة صعب نفسها عن الحجاب فبقيت ملازمة له ولو بشكل رمزي طوال حياتها ولعلها بذلك تقصد، بعد النجاح الذي لقيت على الصعيدين الصحافي والتربوي، أن الحجاب المادي لا يشكل عائقًا أمام الحرية والمساواة، أنما ما يعيق الفتاة هو الحجاب المعنوي الذي فرضه ذلك المجتمع الذكوري.

يأخذ موضوع تعليم الفتاة حيزًا كبيرا من كتابات عفيفة صعب. فقلة من رجال الطائفة الدرزية أرسل البنات إلى مدارس الإرساليات لتلقن العلم[٢]. فركزت عفيفة صعب على تأسيس المدارس "ألأناثية"[٣] واعتبرتها ثمرة طبيعة لنشؤ النظام التهذيبي فنراها تطلب إلى الرجل تعميم العلم للبنات ليتمكنّ من القيام بهذه الخدمة حق قيام. فالنقص كبير والحاجة ملحة إلى المدارس الأنثوية التي تعنى بالفتيات عامة والدرزيات منهن خاصة. والواضح أنها كانت تتطلع باهتمام إلى إنشاء مدرسة للبنات وفي نفسها خشية من ردة فعل رجال الطائفة الدرزية، فجاءت تتلمس الدعم عبر مجلة الخدر من النخبة المعنية بتطوير مدارسها وتعميم العلم على أبناءها[٤]. فتطلب إليهم بالتالي أن يدلوا بدلوهم في ماهية المثل الأعلى لمدرسة "أناثية" وطنية تتفق مع العصر وتحتفظ بالإرث الثمين من مكارم السلف وصبغة الشرق، فتخرّج للوطن حاجته من الأمهات اللواتي يعوّل عليهن في ترقيته[٥]. ويبدو أن البعض، وإن قبِل بمبدأ المدرسة "الأناثية"، "الأناثية"، إلا انه دعا إلى التفريق بين المناهج الدراسية للجنسين. وبالرغم من معارضة عفيفة صعب لهذا الطرح، نجدها ترضخ للأمر الواقع، وتخبرنا أن الحالة الاجتماعية الحاضرة لا تطلب "هذا التساوي ولا تقدر على حمل أثقاله"[٦].

---

[١] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية، الفتاة"، ٢٠٣.

[٢] جرجي باز، "نهضة الدرزيات"، **الخدر**، ١(تموز، ١٩١٩)،٥١-٥٤.

[٣] عفيفة صعب، "المدارس الأناثيّة"، **الخدر**، ٤(١٩٢٣)، ٣٩٠-٣٩٤.

[٤] افتتحت مدرسة الصراط في عالية سنتها الدراسية الأولى سنة ١٩٢٥. وقد اوردت المجلة نص الخطاب الذي القته عفيفة صعب في مناسبة تدشين المدرسة في ٢٣ تشرين الثاني من تلك السنة وذلك بحضور نخبة من الاعيان والادباء. وتكلم في الحفل أيضا الأمير امين ارسلان، جورج باز، ومحمود سلمان عزام. انظر: **الخدر**، ٦(كانون الثاني، ١٩٢٥)، ٢٩٠-٢٩٤.

[٥] عفيفة صعب، "المدارس الأناثيّة"، ٣٩٣. اوردت مجلة الخدر بعض الردود التي تؤيد فكرة إنشاء المدرسة الوطنية لتعليم الفتاة. غير ان هذه الردود لا تعطي فكرة واضحة عن تقبل الطائفة عمومًا للمشروع، فربما أُغفلت عن قصد رسائل المعارضين له. انظر: شاهين ابو علي، فريد طليع، عارف يونس، احمد تقي الدين، عبد الله الريشاني (مترجمة عن الاصل باللغة الانكليزية)، **الخدر**، ٤/، ٤٩٨، ٥٣٢؛ ٥/١٦٧، ٢٢٠، ٣٠٧.

[٦] عفيفة صعب، "المدرسة الداودية الدرزية"، **الخدر**، ٢(ايلول، ١٩٢٠)، ٨٦.

وتثور عفيفة صعب عندما ترفض سلطة الانتداب الفرنسية في لبنان طلب ترخيص تقدمت به لتأسيس مدرسة للبنات في بلدة عالية من جبل لبنان وكتبت تنتقد القرار بعنف[١]، وتعتبره جور واضحٌ بيّن حسب قولها. وهي تدرك أن خلفية هذا الرفض ما هي إلا لاعتبارات سياسية تتعلق بموقف السلطة الفرنسية من الطائفة الدرزية[٢]. فتدافع عن رغبة الدروز وحاجتهم في أن تكون لهم مدرسة واحدة على الأقل يتماشى فيه التنوير العلمي والحرص الأدبي والإكرام الديني. ولكل طائفة مدارسها فلماذا تحرم الطائفة الدرزية من هذا الحق. أما منطق قاعدة المدرسة الواحدة في القرية الواحدة الذي تذرعت به السلطة[٣]، فهو برأيها يسدّ على الدروز جميع منافذ النور. وفي اعتراضها على هذا التمييز تظهر "العصبية" الدرزية عند عفيفة صعب[٤] وهي ولا شك تدرك أن رجال طائفتها لن يرسلوا بناتهم ألا إلى مدرسة تحفظ لهن التقاليد. وباعتراف مجتمعها فإن عفيفة صعب هل الوحيدة المؤتمنة على هذه المسؤولية الجسيمة. وتشهد لها مدرسة الصراط بأنها خرجت العديدات من السيدات الدرزيات، وغير الدرزيات، فلولا جهود هذه السيدة المعطاء لكن حرمن حقهن من التعليم. ولا يغيب عن بالنا صعوبة تمويل مشروع المدرسة ومع هذا لم تطلب مساعدة من احد سوى أبناء الطائفة الذين "بسطوا أكفًّا عُرفت بعريق السخاء"[٥] السخاء"[٥] بعد أن أقنعهم حماس واندفاع عفيفة صعب إلى تأيدها ودعمها المادي والمعنوي.

وفي صراعها الدائم ضد التميز بين الجنسين تتناول موضع "المولود"[٦] بمعناه الأعمق. وترى في "الوالدية" تزاحم الأنانية في حب البنين، وتشعر فيها الميزة والتفضيل ما بين الأولاد. فكيف نرجو بين الناس إذا كانت الأنانية تجد حتى في الوالدين مقراً لها؟[٧] وربما عذرتهم في تفضيل الصبي لكونه الأقوى جسديا، والناس عبدت القوة منذ القدم، لكنها ظلت تصبو عدلا ما دام العدل بعيدا. فالوقت يقضي بإصلاح حال المرأة واستخراج دفائن الكنوز من مواهبها بالتهذيب والتعليم[٨]. أما إذا كان على الإنسان الرضا بما يكون نصيبه مما لا حيلة له به، فأحرى بالرجل إضمار حسن التربية والتهذيب لأولاده بالسوية

---

[١] عفيفة صعب، "الغريب في وطنه"، **الخدر**، ٥(١٩٢٤)، ٣٩٦.

[٢] هناك الكثير من الابحاث التي تناولت العلاقة المتشنجة بين الطائفة الدرزية وسلطة الانتداب الفرنسية والتي أدت إلى اندلاع الثورة الكبرى في جبل الدروز سنة ١٩٢٥. نشير إلى بعضها: عادل أسماعيل، **السياسة الدولية في الشرق العربي ١٧٨٩-١٩٥٨**. ٥ أجزاء، (بيروت: ١٩٦٢)؛ منير الريس، **الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، الثورة السورية**، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٩)؛ حسن امين البعيني، **دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠-١٩٤٣**، (بيروت: المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ١٩٩٣).

[٣] رفض المفوض السامي الفرنسي الجنرال ويغان طلب عفيفة صعب بحجة ان مدرسة واحدة للبنات في عالية تفي الحاجة. ومعلوم ان المدرسة التي اشار اليها هي مدرسة الراهبات. وتناقش عفيفة صعب فائدة القانون – مدرسة واحدة للقرية الواحدة — وتذكّر أنه يوجد في مسقط رأسها الشويفات خمس مدارس للبنات، ومدرسة في قرى دير قوبل، شملان، عبية، عيناب، بعقلين وغيرها، ولكنها مؤسسات لا يد للدروز فيها. أنظر: المصدر السابق، ٣٩٧-٣٩٨. عن المدارس في لبنان في تلك الفترة راجع ما كتبه احمد ابو حاقة، "دور لبنان في النهضة العربية الحديثة، ١٨٥٠-١٩٧٥". **في لبنان في تاريخه وتراثه**، جزءان، (بيروت: مركز الحريري الثقافي، ١٩٩٣)، ١/٤٨٩-٤٩٢.

[٤] عفيفة صعب، "الغريب في وطنه"، ٣٩٩.

[٥] المصدر السابق، ٣٩٨.

[٦] عفيفة صعب، المرأة الدرزية، المولودة"، **الخدر**، ٣(ايلول، ١٩٢١)، ٨٦-٩٠.

[٧] المصدر السابق، ٨٧.

[٨] المصدر السابق، ٩٠.

وإعداد بناته برشد وحكمة لتستقيم قاعدة الأخذ والعطاء بين الناس. ويلفتنا هذا التناقض اللاواعي عند عفيفة صعب فمن جهة نجد غليانًا وتوقًا إلى التغير السريع ثم تعود وتستسلم لقدرها، وتبرر هذا التراجع على انه قدر بنات جيلها، فتدعو الرجل أن يحوطهن بعطفه وتفهمه. وفي هذا كله يبدو أن عفيفة صعب إنما تسرد واقع حياتها الشخصية التي لولا إحاطة الوالد لها ولشقيقاتها لما تسنى له أن تنجز ما أنجزت. ونراها تعترف أن للفتاة خصائص تتميز بها كون الفتاة الشرقية محصّنة معتزلة تجري عليها "سنن دينية وعادات واصطلاحات قومية خاصة".[١] ويبقى تثقيف الفتاة، الضامن الوحيد كي لا تنشأ ساذجة جاهلة قاصرة "إذا داهمتنا ظروف تمتحن قوانا ترانا من التقصير في دركةٍ سفلى وعدّت وجودنا وجودًا بهيمياً ليس إلا".[٢]

وتفاخر عفيفة صعب كإحدى المساهمات في الحركة النسائية، بما وصلت إليه النهضة النسائية في البلاد وتعتبرها الصوت والنور والقوة كما تعتبرها "الحادي الذي ساق بنت الحجاب إلى موقف كان محظورا وشرّفها بسماع بنات الحجاب والسفور بارتياح وسرور"[٣]. والى كل من انتقد الحركة في بدايتها ونعتها بالنضال غير الموزون تؤكد انه لا بد للنضال من نهاية، ولا غنى للفوضى عن السكون بحيث تنجلي المعارك عن توازن يرضى به الفريقان. وفي كلٍ، الحركة هي الحياة، والسكون هو الموت. "فلا ييأسن الرجال من تحركنا ولو على ضلال، ومحجّة الصواب لا بد من بلوغها".[٤] فعفيفة صعب ممن يرفض العودة إلى الماضي لأنه الميت الذي لا ينشر والفائت الذي لا يعود.

ثم نجدها تسأل عن ما تبغي المرأة من نهضتها الحية في عصر استفاقةِ كل ضعيف فرد وجماعة. هل هي تبغي الثأر من الرجل، والرجل كان هو الآخر ضحية تهميش المرأة، ألام والأخت والزوجة، فدفع هو الثمن جهلا. فيأتي الجواب أن المرأة لا تبغي من نهضتها انتقاما من الرجل فالحق قد انتقم لنفسه. وهي لا تبغي ترجّلاً[٥]. فالمرأة تروم لنفسها ثلاثًا: العلم والحرية والقوة. كما تروم للعالم ثلاثة: السلم والصلاح والغنى. فإن هي ملكت ناصية مطلبها الأول، جاءها مطلباها الآخران بطبيعة الحال. والمرأة حين سعت في توسيع دائرة علمها، افتتحت طريقاً سويًا لحريتها ووضعت أساسا ثابتًا لقوتها. كما ازدادت معرفة بواجبها واجتلت بوضوح أكثر حقيقة مقامها وارتفع مستوى إدراكها. فالحرية أتت نتيجة طبيعة للمقدمة اللائقة ولم تكن هبة "من يد جوّاد إن شاء أعطى وإن شاء منع".[٦]

وفي الوقت ذاته تدعو عفيفة صعب الرجل إلى الاستفادة واخذ العبرة من تزايد النشاط الأنثوي في الحقل الاجتماعي والأدبي، فله فيه برهان يلمسه باليد على أن المرأة سائرة معه بجد ونشاط وإخلاص لإصلاح حال الوطن من كل وجه، وإسعاده بكل طريقة ممكنة. فهؤلاء السيدات ما هنَّ ألا صورة للمرأة

---

[١] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية، الفتاة"، ٢٠٢.

[٢] المصدر السابق، ٢٠٣.

[٣] عفيفة صعب، "النهضة النسائية"؛ "هل من يحقق حلمًا؟"، **الخدر**، ٣(ايار، ١٩٢٢) ٤٠٢؛ ١(تموز، ١٩٢١)١١.

[٤] المصدر السابق، ١٠.

[٥] عفيفة صعب، "النهضة النسائية"، ٤٠٥.

[٦] المصدر السابق.

المتعلّمة فليدرك الرجل إذن ضرورة تعليمها وتسهيل وسائل ارتقائها لتزيده من أمثال خدماتها الجليلة. وفي خطوة موازية تعلق الكاتبة على الدعوة إلى اتحاد الجمعيات النسائية بجمعية واحدة، واجتماعها لغاية التفاهم والتكاتف، فتعتبر أنها خطوة عظيمة في تعميم النهضة النسائية وتقويتها. وهي بلا شك "دعوة حيّة عالية الصوت فعّالة إلى كل امرأة تهيب بها للدخول في جند النساء المصلح، وتوسيع نطاق هذه الحركة الآيلة إلى إسعاد ذاتي وعام"[١].

الطائفية إحدى الإشكالات التي تناولتها عفيفة صعب عبر دور المرأة المرشد فيما يخص الإيمان والتسامح[٢]. أما وقد ثبت أن الدين هو الرابط الذي يثني البشر عن فعل المحرمات، ورابط الكون الأدبي، وتقرر شدة لزومه لتحسين حال المجتمع، تسأل أيّ من بني الإنسان، يُناط أمر غرسه في قلوب الأبناء وإنشائهم على مبادئه؟[٣] وجوابها أن هذا الأمر يجب أن يوكل إلى المرأة لان بيدها زمام التربية الأولى. وتعترف عفيفة صعب أن الأمر يتطلب نوعية معينة من الأمهات. فالسواد الأعظم من الأمهات برأيها لا يعرفن من الدين سوى كثرة التمتمة، ولا من التمسك به إلا غرس بذور البغضاء في قلوب أولادهنّ لأبناء بقية المذاهب. ويشكل هذا النوع من الأمهات عثرة في سبيل الإنسانية ومضر بجوهر الدين الحقيقي. فألام المثالية من تكون راجحة العقل، سامية الأخلاق، متعلمة راقية. وإلى من يتبادر إلى ذهنه لأول وهلة أن العلم يضعف الإيمان ويحل ربط الدين، تجيب الكاتبة أن الحقيقة عكس ما يخالون. فالعلم والدين بنظرها يلتقيان عند محجّةٍ واحدة هي الفضيلة والعبادة الصحيحة والسير الدائم إلى فوق في "معارج الإنسانية". ونراها تناشد نساء الوطن الذي تعددت فيه المذاهب أن يسمعن نداء بلادهن لهن ليجمعن قلوب الناشئة تحت لواء دين الوطنية والإنسانية وليبادرن إلى اقتلاع ما غُرس في الماضي من البذور الفاسدة، وغرس بذور جديدة صالحة لخير البلاد على قاعدة لكم دينكم، ولي ديني، والوطن للجميع.

شغلت أمور المرأة الدرزية اهتمامات عفيفة صعب فلم تترك جانبًا من جوانبه الاجتماعية، والثقافية ألا وعالجته في سلسلة من المقالات على مدى السنوات السبع وجهت في بدايتها نداءً تعبئ فيه شعور القراء فتقول: "إلى قومي، إلى المجموع العزيز الذي أرى في ماضيه عز المنعة، وفي حاضره التربة الخصبة، وفي آتيه الحياة السعيدة الراقية، أوجه صوتا هو صوت النفوس المتململة تروم مخرجاً إلى ساحة، وبهبة الحياة تريد أن تفيد وتستفيد".[٤] ومع تقديرها لميّزات ضمنت مقام مجتمعها في زمن مضى، فهي لا تعتبرها العدة الكافية للحياة المتغيرة في أوائل العشرينات. فالشجاعة المجردة عن العلم، والنشاط العاري من الهدف، والتقاليد المرعية بلا نقد لم تعد تكفي. فخير ما تحتاجه طائفتها الدرزية لتجاري العصر ومطالبه هو علم وعمل، اقتباس وإلغاء، تحوير وتعديل. ثم تعود إلى المحور الأساس، ما

---

[١] عفيفة صعب، "في عالم المرأة"، **الخدر**، ٣(حزيران، ١٩٢٢)، ٤٧٤.

[٢] عفيفة صعب، "المرأة والدين"، **الخدر**، ١(ايلول، ١٩١٩)، ٦٥-٦٧.

[٣] المصدر السابق، ٦٥.

[٤] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية، كلمة تمهيدية"، ٤٧.

تسميه "نقطة البيكار"[1]، المرأة. فمهما سلك المجتمع من متشعبات الطرق في توخي الإصلاح لا بد من الرجوع إلى الطريق الرئيسي، ومهما حام حول المواضيع الإصلاحية يستقر به الجولان عند هذه النقطة. فالمرأة جذع البشرية ومصدر كل حياة عائلية وبالتالي نعيم الكون أو جحيمه. وتنتهي إلى حقيقة ثابتة عندها أنه لو جمع الرجل جميع حسنات الحياة، عبثًا ينشد كمالا بشريًا أو سعادة حقيقة ما دام ينقصه نصفه، أو ما دام نصفه ضعيفًا عليلا. ثم تهاجم الرجل وتتهمه بأنه مسؤول عن ضعفها الذي أصبح "متملّكًا بالإرث" فغارت مطامحها العالية في لجةٍ من الذل بالعسف. ومن جهة أخرى يظهر التناقض عند الكاتبة إذ تعود فتشير إلى عدم قدرة المرأة على إصلاح نفسها فتبقى الأمر منوطًا بمؤازرة ولي أمرها. "فإن يكن صاحب هذه اليد التي أذلتنا وأضعفتنا وأهملتنا، أدرك خطأه الماضي وأحب تكفيرًا وإصلاحا فليرسم لنا خطة يراها وليبد أفكارا يرتئيها، على شرط أن يعمل بما يقول: وما يزرع الإنسان إياه يحصد"[2].

وتستهل عفيف صعب سلسلة من المقالات تحت عنوان: المرأة الدرزية، فتطرح في بدايتها مسألة تبرم الأهل من ولادة البنت والتفضيل الظاهر للمولود الصبي عليها. ثم تتناول دور الفتوة فمشاكل الزواج، والأولاد ، والحرية الشخصية والمسؤولية الاقتصادية تجاه العائلة والوطن. وفي كل هذه المجالات تتميز بالموضوعية وبالتحليل والعمق في معالجة ريادية. فما هو حال المرأة الدرزية في مجتمع عفيفة صعب؟

تخبرنا انه بعد "النظر في خدور المحجبات"[3] وجدت أن الصرامة في التربية والحجر والضغط الشديد في مرحلة الفتوة، هي السياسة المتبعة من الأهل، وفي ظنهم أنها الطريقة المثلى لصون الفتاة . أما هي، فيقينها أن عبور الفتاة إلى عالم الإدراك يحتاج إلى رعاية كبيرة من المربي، لذا تنصحه إشراك العقل والقلب في هذه المرحلة. فكلما زاد الاعتناء بالفتاة ازدادت حبًا واعتبارًا للوالدين. فما يعطونه خيرًا في هذا المجال يعود عليهم أضعافًا.

في مقالها الثاني تعالج موضوع الحياة الزوجية[4]. ولا بد من الإشارة أن عفيفة صعب تطرق موضوعًا كان يعتبر من المحظورات عليها وهي الغير متزوجة. ومع هذا تناولت زواج الفتاة من جميع جوانبه وبجرأة كلفتها الكثير من الغمز والانتقاد والتجريح. فترى أن الخطوة الأولى، أي الخطوبة، أكثرها إشكالا وادعاها إلى تحكيم العقل والقلب معًا. وتعدد شروطًا يأتي بالدرجة الأولى اتفاق الأخلاق والمشارب، ثم التكافؤ العقلي بحيث يعتبر كل منهما الآخر شريكا يعادله في القوى الفكرية فلا يجد سبيلا للاحتقار والملل. ولا تغفل أهمية الحب المتبادل، ومن من الدرزيات التي كانت تجرأ على لفظ الكلمة فكم بالحري المطالبة بها في ذلك الوقت. أما عفيفة صعب فترى أن الحب مذلل العقبات، والساتر المساوئ،

---

[1] المصدر السابق، ٤٨.

[2] المصدر السابق، ٤٩.

[3] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية، الفتاة"، ٢٠٣.

[4] إذا قارنا بين طرح عفيفة صعب لموضوع الزواج وما جاء عند احد المؤرخين المعاصرين لوجدنا تباينًا في الرؤية. فهو يرى الزواج من الناحية التقليدية الدينية البحتة بينما تتناوله هي من وجهة عصرية متقدمة. أنظر: سليمان ابو عز الدين، "حقائق عن المرأة الدرزية"، **الخدر**، ٤(تموز وآب ١٩٢٢)، ٩٦-١٠٤؛ أميمة زهر الدين، **المؤرخ الدرزي سليمان أبو عز الدين حياته وأعماله**،(بيروت: مؤسسة التراث الدرزي، ٢٠٠٤)،٩١-٩٦.

والمكبر الحسنات، ومجلبة السلام ألبيتي. وهنا تؤكد أن غاية الزواج لم تعد نفسها كما في الماضي، فقد ارتقت ما فوق المادة التافهة وصارت عند الشاب والشابة توقاً إلى شريك يشاطره الحياة.

وخلافًا للتقاليد المتبعة، تصرّ الكاتبة على واجب التقابل والمخالطة على أن تبقى ضمن الحدود حرصا على الفتاة وخوفا من شبان يستغلون ضعفها. ولا تنسى مسألة التناسب في الأعمار بين الشريكين. وتسأل عن عدد الذين يراعون هذه النقطة في الزواج. وجوابها: "ألا إن في كل حي ومكان يردد الفضاء أنين نفوس مظلومة شقية من أليف لا تألفه، وزوج لا يفهمها ولا تفهمه، لو قيس عمراً بابيها، لساواه"[١] . ولكن عفيفة صعب لا ترغب إلى ثورة أنثوية. وحرصًا من أن يستغل بعض الجهلة هذا الموضوع ويجعلوا منه سببًا لمنع نسائهم من قراءة مجلة الخدر أو الالتحاق بمدرسة الصراط، تدعوهم لفتح أقنية حوار حول كل المواضيع المتعلقة بالمرأة حتى تلك التي كانت تعتبر في محيطها من الممنوعات أو المحرمات[٢]. فمسألة تهمّ طائفة بأسرها لا يمكن لفرد أكثر من أن يدلي فيه بخواطر وأراء قد تصيب وقد تخطيء.[٣]

وتتابع عفيفة صعب معالجتها عالم المرأة الدرزية بمقال عن الزوج، وتتناوله كناقدة اجتماعية تستنهض مجتمعها إلى ما تسميه "السبيل الضنك". ويشعر القارئ بنقمة عفيفة صعب على رجال عصرها إذ تصف الرجل بذلك المستبد الذي يبغي مصلحته قبل كل شيء. والمرأة مدعوة إلى تلبية كل طلبات الزوج ومجاراة كل إرادة له. وقد يقول البعض أن هذا انسجاماً. فتجيبه الكاتبة: "فسدت تسميته بالانسجام فكان إخضاعا يسترق نفساً لنفس، ضعيفاً لقوي؟"[٤]

وتخلص إلى القول بأن المرأة الدرزية بوجه عام وفيّة لزوجها مسرفة في الطاعة له فلماذا الخوف منها وعليها؟ "فهو كلما ازداد بها ثقة ازدادت بآدابها ضنا وعليها حرصا إلى أن يأتي يوم يتم لها في الصالحين، النفسي والعقلي، فيجد بين يديها جنته الدانية الغنّاء"[٥]. ومن الملفت أن الخوف من اتهام المرأة المتعلمة بالتهتك والفجور شكلّ هاجسًا عند الكاتبة فنراها تكرر في هذا السياق الدعوة إلى مراعاة التقاليد. ويظهر التناقض هنا أيضا من حيث التركزّ على استقلالية المرأة ثم الدعوة إلى مراعاة الزوج[٦]. وتتوجه إلى الرجل الدرزي فتناشده الرجوع إلى الأصل الذي منه اخذ صفاته ومميزاته، فيعي واجبه تجاه زوجته[٧]. فكل ما تبغي المرأة بنظر عفيفة صعب، هو كرامة لائقة تدري بها نطاقها فتجيد فيه قياما بشؤونه. فلو أنصف، لرأى تكافؤًا في أعمالهما ومتاعبهما، وبالتالي نزل عند ما يقضيه العدل من إطلاق يدها ماديًا ومعنويًا إن لم يكن كلاً فبعضه.

---

[١] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية، المخطوبة"، **الخدر**، ٣(آذار، ١٩٢٢)، ٣٢٥.

[٢] المصدر السابق، ٣٢٨.

[٣] عفيفة صعب،"المرأة الدرزية، الزوج"، **الخدر**، ٥(تشرين الثاني، ١٩٢٣)، ٢٥٤.

[٤] المصدر السابق، ٢٥٧.

[٥] المصدر السابق، ٢٥٩.

[٦] للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر: نازك يارد، "نظيرة زين الدين"، ٢٥٢.

[٧] عفيفة صعب، "المرأة الدرزية ، الزوج"، ٢٦١؛ حول مراعاة حقوق المرأة في المذهب الدرزي، أنظر: فؤاد ابو زكي، **السيد الامير جمال الدين عبد الله التنوخي**، (عينبال، لبنان: ١٩٩٧)، ٣٣٨-٣٦٤.

ومن المشاكل التي كانت تعاني منها الطائفة الدرزية مشكلة غياب مجلس للملة يرعي شؤونها. وما أن أعلن عن فكرة تأسيس المجلس الملي الدرزي حتى تناولت عفيفة صعب هذا الخبر بفرح كبير وكتبت: "المجلس الملي الدرزي! ما أعذبه اسمًا جديدًا لم يسبق له مثيل في سجل طائفة هي بنت عشرة قرون. فهو الأمل في سمو الحياة، وله دور في الإمساك بأعنة القوى موجهًا بها في الطريق القويم مؤهلاً إياها لمقام عزيز"[1]. وإذ تسأل عن المهمات التي يتوخى القيام بها، تطالبه عدم السكوت عن الظلمة ضد المرأة، والعمل على تبديد غياهبها بما هو ضمن نطاق صلاحيته، وتدعوه إلى تأسيس مدارس ابتدائية في قرى لبنان كي لا تبقى الطائفة في جهل عام والمتعلمون الأقلية من أبنائها.

ثم تعرض أمامه حال الإهمال والتلف التي تتخبط به المجالس الدينية وتسأل إلى متى تبقى قائمة أطلالاً ناطقة تشهد بخمولنا وانحلال رابطتنا الدينية؟ والرؤساء الروحيون كثيرون، وكثرتهم قلة، ولكلٍ من الرجال الحق المطلق في ترسيم نفسه رئيساً روحياً وارتداء الحلة الرسمية رضي الأهالي أم غضبوا. "فهل نبقي على هذا النظام العديم الانتظام سائرين؟ وتوجّه في هذا السياق انتقادًا لاذعًا ولومًا إلى المرأة الدرزية المتعلمة لإهمالها الأمور الحيوية، وتتهمها بالتقصير والتواني عن المطالبة بحقها. فالمرأة الدرزية حسب رأيها، لا تعطي الاهتمام الواجب نحو نشر المعارف بين بنات جنسها مع أنها تعلم علم اليقين أن في ذلك الطريق القويم ما يوصل إلى الحرية الصحيحة، إلى الحق الذي يجب أن تتمتع به، وإلى احترام مقامها في الهيئة الاجتماعية. وفي هذا اعتراف صريح من الكاتبة أنها لم تلق تجاوبًا أو مساندة من زميلاتها المتعلمات وبقيت تكافح وحدها بجرأة. ولا تنسى عفيفة صعب أن مسألة الوصية في الإرث تعبث بحقوق المرأة الدرزية عبثاً إلى حد اعتبارها ملحقًا لا قيمة له، وكائناً لا احتياج به إلى أرث ولا جدارة بتصرف أو تملّك. وكي لا يستمر هذا العبث، تطالب من المجلس الملي أن يواجه هذه المشاكل الحيوية لما فيه خير المرأة.

شؤون اجتماعية اقتصادية وثقافية

ولم تترك عفيفة صعب مجالاً إلا حاولت سلوكه والتصدي له انطلاقًا من دورها في الصحافة النسويّة. فطرحت إشكالية الحرية بين الفرد والمجتمع، ومشاكل القومية العربية؛ وتناولت دور المرأة والاقتصاد ثم مساهمة الصحافة والأدب عمومًا في تطوير النهضة الاجتماعية والفكرية.

تبحث عفيفة صعب مسألة التفاوت بين الفرد والمجموع، من زاوية النزاع الدائم بينهما، ذلك في تمرده وهذا في نقمته. الأول يُسرف جموحًا والآخر يُسرف جمودًا أو تقييدًا. ومن وراء الأول الهجرة والاحتكاك، ومن وراء الآخر ما ورث وما أَلِف وما ضاق من دائرة حركة حياته الاجتماعية. وترى أن الفريقان يبقيان في نقمة وخصام إلى أن يلتقيا عند طريق متوسطة بينهما تجعل التفاهم سهلاً وتحتم

[1] عفيفة صعب، "المجلس الملي الدرزي"، **الخدر**، ٣(تموز وآب، ١٩٢١)، ٣.

عليهما "الجري معًا جريًا وثيدًا ثابتًا إذا كانت السلامة ما يبغيان مع التحول المحتوم"[1]. لذلك تطلب من المجموع التنازل عن الكثير مما أَلِف تقديسه والتشبث به. ولعل المجموع لا يبلغ هذه الغاية إلا إذا اقتنع بضرورة تعميم التعليم، وتوسّل إلى الاطلاع على مجريات العالم. فهو ما لم يلمس بيده ما يجري، غير معترف بوجوب ما يجب، وباقٍ يرهق النشء الجديد، ويضيق على الشبيبة مداخلها ومخارجها فيستنفذ صبرها ويحملها على العصيان، فالانفلات من قيوده جمعاء. أما الفرد، فإذا استوضح ضرر الطفرة وتيقن من أفضلية التدرج، هدر من مطالب اندفاعه، وخفّض من شده هوسه، واحتمل بعض الحرمان من بعض الرغبات التافهة العوائد في سبيل خير عام ورضا عام.

ونراها تطالب بالحرية والكرامة الشخصية حتى للمجرمين فترفض عقوبة الإعدام وتدعو إلى إلغائها أسوة بالأمم المتحضرة، وإذا تعذر ذلك فالتحفظ للمجرم قليل من الكرامة. "وحسبكم موتهم، والموت ستار مهيب نريد أن ننسى وراءه مساوئ حتى أشقى الأشقياء إلى أن يأتي يوم يجيئنا فيه عدل اصح وأسمى يقول أن الإعدام جناية"[2]. ويبقى سؤالها: ما هو القصد من الإعدام؟ التخلص من المجرم تخلصاً باتاً أم إرهاب الأحياء بعده؟ ثم ما هو العقاب؟ الانتقام من الجاني أم تأدبه؟ أم إذا كانت الغاية من الإعدام التخلص من المجرم فكأن طبيباً يقتل مريضه تخلصاً منه. والمجرم مريض أيضا. وهي ترفض الإعدام على قاعدة أن حياة المرء من مهده إلى لحده مسودة بثلاثة أنواع من السيطرة لا بد منها: سيطرة والديه، سيطرة مهذبيه، وسيطرة حكومته. وجميع الحالات لاق بها التأديب دون الانتقام مهما تعاظم الجرم فلماذا الإعدام إذن؟. ثم تطرح حلولا لإعادة تأهيل المجرمين ومنحهم الفرص للعودة إلى الانضمام إلى المجتمع.

عفيفة صعب عاشت في فترة برز فيها الخطاب الوطني بوصفه التعبير السياسي والثقافي المسيطر في المنطقة[3]. فشغلت القومية وجدانها وآمنت بها ودافعت عنها ضدّ ما أسمته الهجمة الغربية. وهي ترى في مفهوم القومية كل ما ارتبط من أجزاء مجموع بربط تجري موحدة لتكوّن منها كيانا اجتماعيّا مستقلاً له ميزاته وخصائصه وسماته[4]. واللغة إنما تنشأ بنشؤ القومية، فهي في جميع حالاتها ملازمة لها. ولا تخفي عفيفة صعب قلقها من أن اللغة والقومية عنصران على وشك التداعي بسبب الفتوح والتدخلات الخارجية القوية بمعداتها "المزينة" التي لها سطوتها على السواد السذج، أو بمعدات لها هيبتها في قلوب الأقلية النبيلة. وأما البعثات الأجنبية، الدينية منها والعلمية، التي شيدت المؤسسات على قواعد لغتها وعاداتها وآدابها، جعلت من أهل البلد فرقًا وميولاً وآدابًا ولغات متباينة متنافرة مبلبلة لا ينسجم لها نظام. وفي وقفة تأمل تسأل إن كانت هذه مصلحة الأجنبي فما هي مصلحة أهل البلد؟ فتنبّه أنه ما زال في الوقت متّسع يتيح الاستصلاح، إذا وجدت فعلاً إرادة ومعرفة وإخلاص. وتخاف من عدم القدرة على

---

[1] عفيفة صعب، "الفرد في المجموع"، **الخدر**، ٥(نيسان، ١٩٢٤)، ٤٨٤-٤٩٠.

[2] عفيفة صعب، "الإعدام"، **الخدر**، ٤(حزيران، ١٩٢٣)،٥٢١-٥٢٧.

[3] أسامة المقدسي، **ثقافة الطائفية**، ترجمة ثائر ديب، (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٥)، ٢٧٨.

[4] عفيفة صعب، "اللغة والقومية"، **الخدر**، ٥(شباط، ١٩٢٤)، ٤٣٦-٤٤١.

مقاومة هذه التيارات وقد أصبحت "لغتنا تتراجع إلى مخابئ الجبال أمام الدخيل المواتي لأهواء الطيش ورغائب المجون؟"[١]

وبالإضافة إلى ذلك تناولت العبارات الدخيلة والأسماء الأجنبية والأزياء الغريبة والزينة التي أخذت طريقها إلى المجتمع اللبناني. وهي على يقين من أن الغرب لا يعترف لنا بقوميتنا. ويقلقها أن الكثيرين ثقلت عليهم جنسيتهم العربية حتى راحوا يستشهدون التاريخ ويستجوبنه، واتوا بالخبر اليقين أن لا عرب في الجنسية من أبناء البلاد سوى قلة، وان سائر الشعب خليط من الأمم الفاتحة التي اجتازت البلاد أو استعمرتها أو امتلكتها زمنًا. وعفيفة صعب ليست في موضوع البحث عن الهوية الماضية ولكن، وقد اختلطت هذه الشعوب لتؤلف مجتمعًا واحدًا، فهي تحتّم عليها تعزيز هذه الجامعة وأداة تفاهمها، والتمرّس في المناعة إزاء كل ما يهددها ويفتّ في عضدها. "وما أكثر ما يهددها !"[٢] وهنا يأتي دور "الأمهات المتهذبات حقًا، والأساتذة الوطنيون حقًا، والمدارس الوطنية حقًا، والصحف الوطنية حقًا" هم وحدهم المخولون القيام بهذا العمل، وتقع على عاتقهم مهمة بعث الروح الجديدة في الأمة، وصقل الناشئة الصغيرة الموضوعة بين أيديهم "لترصف بها جدران البناء الجديد."[٣]

ومع هذا نرى أن عفيفة صعب لا تدعو إلى التقوقع، وهي مؤمنه بالتثقيف والحوار بين الحضارات وأنه لولا اختلاط الأمم بعضها ببعض ما كان التنافس يعلو بمخترعاتها وبمكتشفاتها وتقدمها إلى الأوج الذي وصلت إليه. ولولا اختلاط الناس المختلفي الأوطان والمشارب والطرق، ما اتسعت دائرة المعارف والاختبارات الأدبية والاجتماعية. ورددت في عدة مقالات إن في احتكاك الأفكار شرار الحقيقة. وفي الوقت ذاته تعرض صراع الناشئة الدرزية بإزاء التعليم والتمدن الغربيين. فترى معارك فكرية بينهم وبين الرأي العام المحافظ الذي "يرمي نبال الانتقاد على ناشئته المتعلمة"[٤]. فعوض اتهامهم بالانحياز إلى العالم الغربي، وليس ذلك بالعجب، تدعوهم إلى الاعتراف "بفقر" الطائفة من الجهة المدنية. فهي تمسكت منذ وجدوها "بسْفر من التقاليد" احتفظت به فلم تحوّر منه حرفاً واحدًا على مدى السنين. فلو أنها تصفحت تاريخ العالم ضمن العشرة قرون الأخيرة لأدركت قيمة الوقت الذي أضاعته[٥]. ونراها لا تتوقف عند حد اللوم، بل تدعو إلى اخذ العبرة من الماضي والاهتمام بالحاضر، والاستعداد للمستقبل.

ويتبين من طرحها أن الطائفة أمام أمرين متناقضين، فمن جهة تسعى إلى إنارة عقول ناشئتها بالعلم، ومن جهة أخرى تحاول استبقاء التقاليد والعادات القومية. ولكنها لم تنل الأمرين لان الناشئة

---

[١] المصدر السابق، ٤٤٠.

[٢] المصدر السابق، ٤٤١.

[٣] المصدر السابق.

[٤] عفيفة صعب، "الناشئة الدرزية. إزاء التعليم والتمدن الغربيين"، **الخدر**، ٢(تشرين اول، ١٩٢٠)، ١٢٥.

[٥] المصدر السابق. يعود تاريخ الدعوة الدرزية إلى سنة ١٠١٧/٤٠٨ في أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. هناك الكثير من المراجع التي تناولت تاريخ طائفة الموحدين الدروز نشير إلى بعضها. امين طليع، **أصل الموحدين الدروز واصولهم**، (بيروت: دار الاندلس، ١٩٦١)؛ عباس ابو صالح وسامي مكارم، **تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي**، (بيروت: المجلس الدرزي للبحوث والانماء، ١٩٨١)؛ عارف تامر، **الحاكم بأمر الله**، (بيروت: دار الافاق الجديدة، ١٩٨٢)؛ نجلا ابو عز الدين، **الدروز في التاريخ**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥).

بدخولها المدارس على اختلاف نزعاتها وجنسياتها واختلاطها لمحيط مختلف النزعات والمذاهب، راقها ما رأته من الحرية الواسعة؛ وقامت في رؤوسها معارك فكرية وفي نفوسها حروب أدبية تصارع فيها القديم الضيق والحديث الفسيح المريح. "وأيها تختار النفس إذا أطلق لها العنان وخيرت بين واحد من الاثنين؟"[١] الجواب محسوس برأيها والناشئة اختارت الحداثة. وهي تنصح الطائفة بأن تضحي بالقليل لتنال التقدم المطلوب. فإن في العادات ما يجب تحويره، وفي التقاليد ما لا بد من تحقيق شدته. والطائفة ليس بوسعها الاختباء في زاوية من زوايا الكون لان المصالح مشتبكة.

وتطرقت عفيفة صعب إلى المشاكل الاقتصادية التي عانت منها البلاد بعد الحرب الكبرى[٢]. فالجميع إذن مطالب بدعم مجهود الإنتاج الوطني، ولو مع قليل من التضحية بالنسبة إلى نوعية المنتجات على أقله في بادئ الأمر. وتستنهض النساء لشراء كل ما هو وطني حتى في المجالات التي يتفوق فيها الغرب. وتنتهي إلى خلاصة بأن للمدارس الوطنية دورها في هذه النهضة من حيث الاستهلاك والإذاعة. وهي مقتنعة بأن ما يُغرس في المدرسة اليوم يصبح المبدأ العام غدًا. "وليس إلا عن طريق المدارس استطاع الغرب النفوذ الذي أراده لنفسه بيننا، وهو سبيل راهن لا يفشل ولا يضّل".[٣]

وفي معرض بحث الوضع الاقتصادي، تناولت أيضا مشكلة هجرة الشباب اللبناني. فنراها قلقة، فتيار المهاجرة بعد الحرب الأولى أصبح جارفًا، "وشبيبة هذه البلاد بكامل عدّة الفلاح تركب متن الأنواء إلى حيث تعتقد تثمير ما أوتيت بغلال تتكافأ معه"[٤]. وهي ترى أن هذا الاعتقاد نزل من الشبيبة منزلة اليقين فلن تتحول عنه إلى أن ترى من الواقع المحسوس ما يكذّب سوء ظنها بقومها وبلادها وحكومتها، فكأن بين سن الرشد وشركات التسفير معاهدة تعاقد الفريقان على تنفيذ شروطها "فلا يبلغ صفٌ من الناشئة ذاك حتى يناوله هذه بما أدّرعه من عزم ومعرفة وإيمان لتقرّ في ارض الوفرة والخصب"[٥].

وتجيب بموضوعية على سؤال: من الظالم في هذه الهجرة، البلاد أم أبناؤها؟ "فلو كانت الحكومة وطنية متجردة لسألتها بيقين الولد بأمه، أما والبلاد تحت الانتداب "فالسكوت أولى"[٦]. وبكلمة أخرى الحكومة غير مسؤولة عن الغيرة المجردة. يبقى على أبناء البلاد، أصحاب الأموال وأصحاب السواعد، أن يتكاتفوا وألا يضيعوا الموصل اللازم بينهما المثمر لاتحادهما، وهو التعاون. فحلّ مشكلة الهجرة حسب تحليل عفيفة صعب إذن، هو بقيام تعاون مخلص بيّن، والتبعية على كليهما في عدم إيجاده. وكتبت تحذرهم: "فإذا ظل التعاون معدومًا فانعِ بلادًا ترى بعد أعوام مأوى للعجزة ومتربّعًا لأرباب الوظائف ومسرحًا للأثرياء، أو قل، وهذا اقرب، مرتعًا لأجانب رأوا تخاذلنا واستفادوا فجاءوا بلادنا مغتنمين وكانوا

---

[١] عفيفة صعب، "الناشئة الدرزية"، ١٢٨.

[٢] عفيفة صعب، "الموقف الاقتصادي"، **الخدر**، ١(كانون الأول، ١٩١٩)، ١٦٥.

[٣] عفيفة صعب، "المنسوجات الوطنية"، **الخدر**، ٤(ايار، ١٩٢٣)، ٤٨٢-٤٨٧.

[٤] عفيفة صعب، "من الظالم؟"، **الخدر**، ٥(كانون الأول، ١٩٣٣)، ٢٩٢-٣٠٠.

[٥] المصدر السابق، ٢٩٢.

[٦] المصدر السابق، ٣٠٠.

بكنوزنا أحق وأولى"[١]. وترجع إلى مبدأ التربية الأول وهو المدارس الوطنية. فتستصرخ المدارس إلى الانتباه لنوع التربية الوطنية، وتحبيب البلاد إلى بنيها، واستنهاضهم إلى تعميرها.

وتطرقت عفيفة صعب إلى الصحافة وأنكرت على الأكثرية المعاصرة اعتبراها من الكماليات وعدم تنبهها إلى الحاجة إليها. وبما أن الحاجة تبقى أساس الرغبة، فما لم يبلغ الشعب المبلغ الذي تصبح القراءة معه حاجة ماسة يبذل في سبيل نيلها بذله في سبيل الضروريات، فلن ترجو صحافته عصرها الذهبي[٢]. ومن يقرأ افتتاحية السنة السابعة يشعر أن عفيفة صعب قد يئست من مشاركة نساء محيطها في مشروع مجلة نسائية، ومن هنا تبرز رغبتها في محاولة، ربما عرفت ضمنًا أنها محاولة يائسة، إلى إعادة قراءة دور الصحافة الجدّية الملتزمة في النهضة النسائية. ويبدو لنا من هذا الطرح أنها بدأت تشعر بانحسار دور الصحافة النسائية وأنها وبعد السنوات السبع التي جاهدت فيها لإنجاح مشروع مجلة الخدر، ترى من واجبها تصويب المسار بالعودة إلى الأساس، أي القراءة. وكأنها شعرت أن اهتمام المرأة المتعلمة قد أصبح في مكان آخر تمامًا، وربما رغبن الصحافة التي تجذب الجمهور بالطلاء والإطراء، وليس تلك التي تجتذبه بالجوهر "الكاسي كسوة الرصانة والصحة"[٣]. فهي ترى الأولى تفعل فعلها في الذيوع والرواج، بينما الثانية يقتضي لها من "إعنات روية القراء ما لا يصبر معظمهم عليه"[٤]. ولا شك أنها بمقتضى هذا التصنيف تعتبر مجلة الخدر ضمن القسم الثاني.

ثم تتحدث عن العبرة في الإنجاز التي قامت به مجلة الخدر وهي تخاطب "أختي ربة الخدر وقارئة الخدر"[٥] وتطلب منها ثقة وعوناً. وإذا كانت قد استفادت مما قرأت، فلتمد يد التعاون لأنها لا تستطع أن تقوم بهذه المهمة بمفردها. وعفيفة صعب لم تفقد الأمل في أن يساهم مشروعها في اتساع أفق المرأة، وتزويدها بزخم وقوة فتلمس حقها بالحرية والكرامة. فلم يعد المنزل سجناً بل أصبح تلك الجنة التي بوسعها أن تجعلها مقر سعادة لرعيتها وان حبها للمنزل ازداد بما انه أصبح البقاء فيه اختياريًا لا فرضاً. وتوجه كلامها إلى وصي ربة الخدر أو القيّم عليها وتطلب إليه أن يدرك موقف المجلة من العصر وأن النهضة واجبة، كما تطلب إليه أن يعاضدها وتصّر بأن المرأة المثقفة خير عون له. وتحّذر من أن الحركة الفكرية تمتد بسرعة لم يعهد لها سابق مثيل وتكاد تعم الكون بأسره. فعلى المجتمع اللبناني أن يواكب هذا التطور علها تسري إليه العدوى وتجد عنده أمزجة قابلة مستعدة تستأنف المسير.

وفي وقفة تأملية تحدثنا عن إيمانها بتوسيع نطاق حبها الإنساني "فمن وراء الوطن المحدود، والقوم المحصور بعدد، صوت الإنسانية التي تصلني بكلّ ابن إنسان بصلة أخوة لا تنفصم. هذه الأخوة، إذا عُدّت الصلات، أحوجها إلى التوثيق بمحبة شاملة منعتقة من الحدود والأغلال"[٦]. وهي ترى الحياة

---

[١] المصدر السابق.

[٢] عفيفة صعب، "الافتتاحية"، **الخدر**، ٧(تشرين الأول، ١٩٢٥)، ٣.

[٣] المصدر السابق، ٢.

[٤] المصدر السابق.

[٥] عفيفة صعب، "الافتتاحية"، **الخدر**، ٣(تموز، ١٩٢١)، ١.

[٦] عفيفة صعب، "الافتتاحية"، **الخدر**، ٥(تموز وآب ١٩٢٣)، ٧.

دورة تدور تواليًا ودوامًا في اخذ وعطاء. وتتعهد لنساء جيلها بمشاركتهن بكل ما لها من معرفة تبثها حيث ترى حاجة إليها، "أتزيّد لأزيد"[١]. وإن كانت لها قوة، تضعها حيث الضعف ينال بها بعض العزم، وستستمد من مصدر القوة قوة لتزداد قدرتها على العون. وإن كانت لها سعة فستفتقد بالبذل مواطن الضنك، ثم تجد تحصيلاً لتنصف الأخوة المقعدة العاثرة. وتبقى عليها مسؤولية إصلاح النفس، وخدمة القومية عن طريق مهنتها في الصحافة والتربية، وثم توسيع نطاق حبها الإنساني وتنفيذ أحكامه بما تدركه قوتها.

وهي اختارت طريقاً شاقة، تشبه مجهودها بباقة ورد شوكها أكثر من ورودها. والشوك هذا هو المسؤولية الجسيمة التي قررت أن تتحملها ثم تستدرك فتقول: "مَن ذا الذي احملّه منتي، والمرء مسؤول في كل حال؟ مسؤوليته الكبرى مسؤولية الحياة ذاتها، وقد أودعت جوهر العقل والضمير."[٢] . وعفيفة صعب أبت أن تكون الجزء المشلول الطفيلي ورغبت في أن تسير في "موكب إحياء الأحياء"[٣] حاملة حملها الذي اختارت، وغايتها مع السائرات في طريق المسؤولية هي واحدة، غاية الارتفاع الدائم. وهناك صوت في داخلها يصرخ "أن نقائصي لكثيرة وأن أوجاعي لمبرحات. وأي الكائنات أولى باهتمامي، وتعهدها أقوم السبل إلى الصلاح العام؟ هو نفسي القائلة: أنا الحجر الفرد، أكفني نحتاً وصقلاً يستقيم بناءٌ قام من تعددي واتحادي".[٤] وعفيفة صعب تهدف إلى دفع اللبنانيات إلى التضحية من اجل خدمة الوطن بما تكسبنه من العلم. الوطنية من هذا في خطر وتداركها واجب بالحكمة والإخلاص. وفي الوقت ذاته تنبّه إلى آفة التقليد الذي يُعجم من أبنائه وبناته المبادئ والعادات، والذي يسدل على إرادتهم الطبيعية غشاءً من الغرور فيصبحون بعد حين لا شرقيين ولا غربيين يعترف بهم[٥].

خاتمة

لم تكن غايتي في هذه الورقة دراسة الصحافة النسويّة في العشرينات أو المقارنة بين عفيفة صعب وبين زميلاتها اللواتي ساهمن في النهضة النسائية بوجه عام، جل ما سعيت إليه هو أن ابرز دورها الريادي في مجتمعها المحافظ. وتعتبر الخطوة الأولى التي صدرت عن عفيفة صعب في سبيل الصحافة، بل في سبيل المرأة الشرقية عمومًا والدرزية خصوصًا، حرية بالتقدير. فهي الأولى بين بنات مجتمعها التي أبصرت النور من وراء الحجاب وشعرت بما عليها من الوجبات وهي في الخدر، وأدركت ما لها من الحقوق المهضومة، ولمست حقيقة مركزها في هذا العالم، ورفعت صوتها من الهوة العميقة التي دفعتها إليها الأنانية ممن يدّعي حمايتها وصيانة حقوقها، فكانت ذلك النور الذي تستنير به المرأة

[١] المصدر السابق.

[٢] المصدر السابق، ٢.

[٣] المصدر السابق، ٣.

[٤] المصدر السابق.

[٥] المصدر السابق.

الغارفة في الظلمة. وهي الدرزية الأولى التي انتصبت بين أخواتها لتنادي بحريتهنّ وتطالب بحقوقهنّ المهضومة، فسبقت فتيان طائفتها إلى عالم الصحافة الراقية. فلا شك أنها استحقت عبارات المديح والثناء التي أغدقها عليها معاصروها[1].

وقد رأينا في هذه القراءة السريعة لمقالاتها التزامها الدفاع عن المرأة الدرزية، وقلقها من التهميش الذي تعرضت له من المجتمع الذكوري. فطرحت حلولا لمشاكلها مستمدة من كتابات رائدات النهضة الشرقية ومن تجارب المرأة الغربية. وهمها الأساس تعليم الفتاة العلوم الراقية التي تتناسب ومتغيرات العصر. فالعلم هو ذلك الصاقل للصفات الطيبة، والحافز إلى الإبداع والتقدم والمحافظ على التقاليد. وبجرأة غير مألوفة لفتاة في سنها ومحيطها المحافظ، هاجمت رجال الدين واتهمتهم بالجهل والتقصير واعتبرت كثرتهم قلة ونادت المجلس الملي لتبني إصلاحات أساسية. ولم تتوانى عن مهاجمة سلطة الانتداب الفرنسية حين رفضت طلبها لإنشاء المدرسة الأناثية.

ومع هذا بقيت عفيفة صعب محافظة على تقاليد مجتمعها وملتزمة الحجاب. وتخبرنا في أكثر من مناسبة أن وقت السفور لم يحن بعد. ولكنها، وإن لم تستطع اخذ الخطوة الأولى، تبقى المؤمنة بحتمية التقدم وعلى يقين أن السفور آت لا محال. وهذه الخشية من اخذ المبادرة، والحرص على مداراة المجتمع، ظهرت في دعوتها المتكررة إلى الرجل إلى ابدأ الرأي عن كيفية التغير المطلوب والتركيز على دوره الفاعل في نهضة المرأة. ومن اللافت أن عفيفة صعب في معالجتها لأية إشكالية تقمصت دور "الفتاة" بمفهومها الأشمل، وأدخلت "الأنا" في طرحها للمشكلة والعلاج. وهي لا تخفي عدم ارتياحها إلى تصرف زميلاتها المتعلمات والى إغفالهن الجوهر بتقليدهن الغرب في الأمور التافهة. وتطلب إليهن السعي والتعاون لما فيه رفعة المرأة الدرزية، وتأسف لعدم التجاوب المطلوب.

وبالإضافة إلى ذلك تفهمت عفيفة صعب العلاقة بين التقدم الاقتصادي والتقدم الثقافي، فحثت المجتمع على حماية الصناعات الوطنية في وجه هجمة المنتجات الغربية. وفي مجال آخر شعرنا بإنسانيتها العميقة عند المناداة إلى إلغاء عقوبة الإعدام واستبدالها بمشروع تأهيل المجرمين.

ويأتي بالدرجة الأولى عندها الانتماء الطائفي الذي كان له ولا شك في بداية القرن الماضي أهميه وأولوية. وقد رأيناه بوضوح في مقالات عفيفة صعب على تنوع موضوعاتها، فطغى إدراك الذات على طرحها وتحليلها. فهي الفتاة الدرزية بالدرجة الأولى، تأتي بعدها قوميتها العربية وانتمائها الوطني. وإدراك الذات هذا لم يؤدي إلى تعصب طائفي أو انغلاق على الآخر، وإنما تبلور حرصًا على مجتمعها من استمرار حال التخلف الثقافي والعلمي الذي كان يعاني منه. فدعته إلى الانفتاح والى الأخذ من

---

[1] على سبيل المثال لا الحصر أنظر: حسين رشيد سري الدين، "إلى صاحبة الخدر"، ؛ احمد تقي الدين، "الخدر المنير"؛ كامل صعب، "مجلة الخدر"؛ محمد طريف (شيخ عقل الطائفة الدرزية في لواء عكا)، "كلمة في تعليم المرأة"؛ هدبا محمد يونس، "صوت لطيف من ذات خدر ادية"، ٢٢٩؛ قبلان الرياشي، "مجلة الخدر"؛ حليم دموس، "ربة الخدر"؛ مي زيادة، "رسالة إلى الخدر"؛ حسين شعبان، "تحية الخدر"، ادال (سيدة من بعبدات لم تذكر اسمها الكامل)، "إلى الفتاة الدرزية". **الخدر**، ١(١٩١٠-١٩٢٠)٩٧-١٠١، ١٣٠-١٣٢؛ ٣١٥-٣١٦، ؛ ٣(١٩٢١-١٩٢٢)٣٧٣-٣٧٥؛ ٤(١٩٢٢-١٩٢٣)٣٤٧-٣٤٩، ٤٥١-٤٥٣، ٥١٠-٥١٢؛ ٧(١٩٢٥-١٩٢٦)٤٢١-٤٢٤.

الثقافة الغربية ما لا يتعارض مع الهوية القومية. كما ركّزت على نبذ الطائفية والمشاركة الفاعلة في تنشئة المواطنة الحقيقة في مجتمع يرزح تحت نير التفرقة البغيض.

ونختم كما بدأنا بعبارة مأخوذة من أقوال عفيفة صعب:

"يوم وضعنا الخطوة الأولى في سبيل الانعتاق، وأرسلنا طرفا ناقماً إلى قيود الجهل والاستسلام، لم نحلم قط أن سنشهد يومًا مجد الضعف يباري مجد القوة، ولا جسرنا على تخيل الدماغ المضغوط بكابوس الدهور والقوى المحبوسة وراء أقفال من حديد، تستطيع تملصًا من كابوسها، وانفلاتًا من معاقل أسوراها، ويبقى لها من النشاط ما يدرك بها، في زمن قصير من التفوق، أعلى أعاليه"[1].

[1] مأخوذة عن كلمة صاحبة مجلة الخدر عفيفة صعب في الليلة التكريمية التي اقامتها جامعة السيدات لمي زيادة، باقتراح منها. المصدر السابق.